المنهل
ALMANHAL

مجلة شهرية للآداب والعلوم والثقافة

العدد ٤٥٠ السنة ٥٣ المجلد ٤٨

جمادى الاولى ١٤٠٧هـ/ يناير ١٩٨٧م

مساحة الضوء

- سومرست موم
- بول ڤاليري

• مسيرة الفكر العلمى العربى

دكتور هند شلبي

اعجاز القرآن

الذى ينظر فى العلوم الاسلامية منذ نشأتها الاولى الى عصرنا الحاضر يلاحظ ان بعضها قد احتل مكان الصدارة من حيث شدة اهتمام العلماء به درسا وتأليفا وكذلك من حيث اهمية الدور الذى لعبه فى تبليغ تطورات الفكر الاسلامى عبر القرون.

ويعتبر علم التفسير احد تلك العلوم. فان احصاء المؤلفات التى ظهرت فيه ما بلغنا منها ومالم يبلغنا يقدم وفرة من التآليف تدل على شدة الاهتمام به كما ان التأمل فى محتوى تلك المؤلفات يمكن من ضبط الاتجاهات المتعددة التى عرفها الفكر الاسلامى عبر القرون.

ويفيد تصنيف المؤلفات فى التفسير تصنيفا تاريخيا فى معرفة الكيفية التى تطور بها الفكر الاسلامى من جهة كما يفيد فى معرفة خصائص ذلك الفكر فى كل عصر بملاحظة الجانب الذى طغى على التفاسير التى ظهرت فى فترة معينة.

وككل القرون السابقة فانه قد ظهر فى عصرنا الحاضر عدد من التفاسير لها طابعها الذى يميزها عما جاء قبلها. لذلك يصنف الباحثون اليوم مدارس التفسير كالاتى: مدرسة التفسير الموضوعى.. ومدرسة التفسير الاصلاحى الاجتماعى.. ومدرسة التفسير الادبى ومدرسة التفسير العلمى.

وقد حظيت بلادنا فى العصر الحاضر بمن الف فى تفسير القرآن - كما حظيت بذلك فى القرون الماضية انطلاقا من يحيى بن سلام البصرى القيروانى من القرني الثانى للهجرة ومرورا بمكى بن ابى طالب وابى العباس المهدوى من القرن الخامس الى محمد بن عرفة من القرن الثامن.

وكتاب التفسير التونسى الذى نعنيه والذى ظهر فى عصرنا الحاضر هو الذى الفه المرحوم العلامة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وسماه: «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» والذى اختصره فى عبارة: «التحرير والتنوير من التفسير»

هذا التأليف الذى يشارك التفاسير القديمة فى منهجيته عموما ينحاز فى الموضوع الذى اهتم به الى مدرسة عريقة الجذور هى المدرسة البلاغية التى يعتبر الزمخشرى من اهم ممثليها فهو تفسير بلاغى بالدرجة

في تفسير التحرير والتنوير

الاولى لكن الشيخ قد اهتم فيه بدقائق البلاغة خاصة وحرص على ان يلتزم البحث فى ذلك فى كل آية من القرآن وهو امر لم يسبقه اليه غيره. يقول رحمه الله: «ان معانى القرآن ومقاصده ذات افانين كثيرة بعيدة المدى مترامية الاطراف موزعة على آياته.

فالأحكام مبينة فى ايات الاحكام.. والاداب فى اياتها.. والقص فى مواقعها.. وربما اشتملت الاية الواحدة على قليل من ذلك او اكثر.

وقد نسى كغيره من المفسرين بعض تلك الافنان ولكن فنا من فنون القرآن لا تظهر على دقائقه ولكنه اية من ايات القرآن وهو فى دقائق البلاغة هو الذى لم يخصه احد من المفسرين بكتاب كما خصوا الافانين الاخرى. من اجل ذلك التزمت ان لا اغفل التنبيه على ما يلوح لى من هذا الفن العظيم فى اية من آيات القرآن كلما الهمته بسبب مبلغ الفهم وطاقة التدبر»

هذه الخاصية الاولى لتفسير التحرير والتنوير قد لا يبرز فيها الجانب الذى اشرنا اليه من قبل وهو الجانب المتجلى فى مدارس التفسير الحديثة ذات المشارب الجديدة المتنوعة.

والخاصية الثانية: تتمثل فى اهتداء الشيخ رحمه الله الى نكت فى التفسير لم يسبق اليها كذلك وتتعلق بمعانى القرآن واعجازه .

● وموضوع اعجاز القرآن وان كان محل اهتمام المفسرين القدامى فان الشيخ قد اتى فيه بما يراه جديدا. لذلك وددنا التركيز فى هذه الكلمة على الجانب الثانى الذى اهتدى اليه وهو النكت المتعلقة بمعانى القرآن واعجازه والذى سنتبين من خلاله انتماء تفسير التحرير والتنوير الى العصر الذى ظهر فيه فكان بمثابة الطابع الذى ختم به ليمكن الباحثين من تصنيفه تصنيفا زمنيا.

يرى الشيخ ان الاهتمام بالبحث فى وجوه اعجاز القرآن يرجع الى كونه معجزة الرسول ﴿ﷺ﴾ الكبرى التى تحدى بها معانديه تحديا صريحا . والتأليف فى هذا الغرض تسابق فيه العلماء من اهل البلاغة فبينوا

نماذج من وجوه اعجاز القرآن بالاعتماد على مالاحظوه من تفوق بلاغة القرآن على بلاغة كل كلام عربى - مستندين فى ذلك الى العلوم الصناعية التى استنتجوها من خصائص كلام العرب وجعلوها المعيار الذى يقيّمون به الكلام تقييما بلاغيا .

ولن نتحدث فى كلمتنا هذه عن الجديد الذى اضافه الشيخ ابن عاشور فى هذا الموضوع فان ذلك يحتاج الى بحث مستقل بل نركز اهتمامنا على معقد من معاقد وجوه اعجاز القرآن الثلاثة او الاربعة، وهو (ما اودع فيه من المعانى الحكمية والاشارات الى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ اليه عقول البشر فى عصر نزول القرآن وفى عصور بعده متفاوتة) .

وقد رأيت ان ابحث فى هذا الموضوع فى تفسير التحرير والتنوير لانه :

(١) بحث جديد فى نظر الشيخ اغفله من تكلم من العلماء فى اعجاز القرآن مثل ابى بكر الباقلانى والقاضى عياض

(٢) كما يطبع هذا التفسير بطابع العصر فيكون ممثلا له بمعالجة المسائل التى ظهرت فيه وشغلت افكار العلماء واقلامهم . . . فيدل على تفسير التحرير والتنوير ما صدق على غيره من التفاسير العالمية فى اعتبارها مرآة عاكسة للتيارات الفكرية التى يعاصرونها - ولا شك فى ان مسألة اشتمال القرآن على حقائق العلوم المعاصرة تعتبر من مواضيع الساعة فى الاوساط العلمية فى العالم الاسلامى وغيره ولا يسمح المقام بتفصيل القول فى اسباب ظهور هذه المسألة على ساحة الفكر الاسلامى ولا فى استعراض المواقف المختلفة منها والتى ترددت بين الافراط والتفريط والتوسط فى القبول او الرفض فالذى يعنينا الاشارة اليه هو ان (ابن عاشور) اهتم بهذه المسألة اهتماما مركزا ظهر فى حديثه عنه بالاشارة والتوضيح فى مقدمتين من مقدمات التفسير هما : المقدمة الرابعة . . . والمقدمة العاشرة كما ظهر فى معالجة الايات المتعلقة بهذا الموضوع معالجة علمية ولكن فى الحدود التى التزم بها والتى تبعده عن الافراط فى الاستطراد الذى يخرج به عن الكتابة التى يرمى اليها من تفسير لآيه تفسيرا علميا .

وقد علق الشيخ ابن عاشور شرعية تفسير الايات على ضوء الحقائق العلمية المعاصرة فى مناسبات متعددة فى التفسير.

١ - *فهو يرى ان فى القرآن روحا علمية مبثوثة فى الايات وتستوجب الدعوة الى النظر والاستدلال . . . وفى التنبيه الى فضائل العلوم وتشبيه العلم بالنور وبالحياة،*

٢ - *وبين ان القرآن قد اشتمل فى كثير من اياته على اشارات لكثير من العلوم . . كما ان بعض العلوم قد ايدت ما ورد فيه مثل علم طبقات الارض والطب والمنطق .*

٣ - *ويحتاج تفسير الايات الكونية فى نظر الشيخ الى العلم بقواعد العلوم لانه لا يتسنى فهم تلك الايات على حقيقتها الا من طريقها(١٥) فان تجاوزها قد يؤدى الى اخطاء فى الفهم مثل ما حصل لبعض المفسرين من القدامى فى شرح الاية الخامسة من سورة الحج عندما فسروا قوله تعالى : ﴿وغير مخلقة﴾ بانها المضغة التى لم يكمل خلقها فسقطت - وهو خطأ بينه ما تم اكتشافه حديثا فى علم الاجنة .*

٤ - *وينبغى ان يكون هذا كله مختصرا على خدمة مقاصد القرآن مثل ما فعل اسلافنا فى الاحكام والاخلاق فجلبوا لها من تفاريع العلوم ما يزيدها شرحا وبيانا .*

ورد الشيخ على من عارض فى تناول القرآن الا على ما كان متعارفا عند العرب، وكان عاما فى الفهم والافهام لجميعهم. وهو ابو اسحاق

الشاطبى الذى يرى ان الشريعة امية ليس فيها من علوم المتقدمين والمتأخرين شىء . لذلك لا ينبغى تناول آيات القرآن من وجهة نظر العلوم الحكمية بجميع انواعها .

وكان رد ابن عاشور على القول بامية الشريعة من ستة وجوه :

(١) فاشار الى قصد القرآن الى نقل العرب من حال الامية الى حال العلم واستشهد بقوله تعالى : ﴿تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا﴾ .

(٢) ونبه الى صفة العموم فى الدعوة الاسلامية ـ وهذا يعنى بقاء معجزة القرآن بقاء مستمرا لاشتمالها على ما يعجز الناس فى عصور انتشار العلم .

(٣) واشار الى تقييد فهم ما جاء فى القرآن بما كان لدى العرب من معارف يتنافى مع ما جاء فى وصفه بانه لا تنقضى عجائبه . . . يعنى معانيه .

(٤) كما يقضى مفهوم الاعجاز فى نظره استخلاص المعانى الكثيرة من الفاظه القليلة .

(٥) ولئن كان المخاطبون بالقرآن اولا : قد وقفوا فى فهمه عند معنى معين لم يتجاوزوه فان ذلك لا يعفى ان من اتى بعدهم لن يدركوا من النص القرآنى الا ما ادركه هؤلاء . . . ورب حامل فقه الى من هو افقه منه .

(٦) ثم انه لاحظ ان السلف قد فصلوا القول فى علوم عنوا بها وتجاوزوا عن طريقها ظواهر الايات فيما كانت له علاقة بمقاصد الشريعة لذلك فانه لا مانع من اقتفاء اثارهم فى علوم اخرى هى ايضا خادمة للمقاصد مبينة سعة العلوم الاسلامية .

بهذا يكون الشيخ ابن عاشور قد دعا الى ضرورة تأويل الايات الكونية تاويلا علميا من طريقين : طريق التقرير وطريق الدحض. ولا بأس من تحديد مفهوم لفظة العلوم عند الشيخ فى هذا المقام.

لقد قسم الشيخ ابن عاشور العلوم الى نوعين . . . سمى الاول علما اصطلاحيا وهو : «ما تواضع الناس فى عصر من الاعصار على ان صاحبه يعد فى صف العلماء» وفى القرآن من هذا النوع نصيب وافر وهو ما يتعلق بمعرفة «الشرائع والاحكام . . وقصص الانبياء والامم . . واخبار العالم» . . فان ذلك العلم هو الذى كان سائدا فى عصر نزول القرآن ـ وكان بايدى علماء اهل الكتاب ولم يكن للعرب منه نصيب الا فى القليل النادر فكان ظهوره بهذا المعنى على يد الرسول العربى الامى معجزة دالة على صدق نبوته ﴿ﷺ﴾ .

والنوع الثانى من العلم سماه علما حقيقيا وهو: «معرفة ما بمعرفته كمال الانسان وما به يبلغ الى ذروة المعارف وادراك الحقائق النافعة عاجلا وآجلا .

■ وقسم رحمه الله هذا العلم الى قسمين من حيث امكانية ادراك اعجازه ـ فجعل القسم الاول يمثل ما هو قريب الادراك فهو لذلك عام الفائدة اذ يكفى لادراكه فهمه وسمعه . . . واعتبر ادراك القسم الثانى متوقفا على الالمام بقواعد العلوم «فينبلج للناس شيئا فشيئا انبلاج ضوء الفجر على حسب المفهوم وتطورات العلوم» .

وهذا المعنى هو الذى جعله الشيخ محط الاهتمام فى تفسيره لانه يجسم الجانب الذى به لن ينفك القرآن ان يكون معجزا عبر العصور. فان القرآن «ما كان قصاراه مشاركة اهل العلوم فى علومهم الحاضرة حتى ارتقى الى مالم يألفوه وتجاوز ما درسوه وألفوه» .

فالاشتغال بفهم القرآن عن طريق العلوم ليس امرا تخييريا فى نظر الشيخ انما هو ضرورة نابعة من القرآن لاشتماله على معانى ادخر فهمها للآتين فى العصور الحاضرة والمستقبلة . وقد صرح بذلك عند شرحه للاية ١٦٤ من سورة البقرة : ﴿ان فى خلق السموات والارض﴾ الى قوله : ﴿وما انزل من السماء من ماء﴾

فقال: «وفى الاية عبرة علمية لمن يجيء من اهل العلم الطبيعي»

والقرآن بهذا القسم من العلم معجز للناس باعتبارات مختلفة فهو معجز للعرب لجهلهم بالعلوم.. يقول تعالى فى الاية ٤٩ من سورة هود: **﴿تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا﴾**. وهو معجز لاهل الكتاب لانهم يعلمون انه ﴿ﷺ﴾ قد اتى بالحق ولم يكونوا قد لقنوه شيئا. وهو معجز لعامة الناس لانه جاء على يد امى نشأ بين اميين.

ولا يؤدى التأكيد على وجود معلومات فى القرآن قد خفيت عن العرب - ولا شك ان فيه ما هو خفى عنا اليوم وما يكون خفيا عمن سياتى بعدنا - قلت لا يؤدى التأكيد على وجود هذه المعلومات الخفية الى القول بان مقتضى البلاغة ان يخاطب الناس بما يفهمون.. فان تخلف ذلك لم يكن الكلام بليغا ذلك لان الناس يتفاوتون فى الادراك وقد يهتدى بعضهم الى معنى لا يهتدى اليه البعض الاخر. فان كانت العقول قاصرة يوما فى ادراك بعض خفايا ايات كريمة فان ذلك لا يعنى انها لن تهتدى الى الكشف عنها ذات يوم - وهو ما لاحظه الشيخ عند تفسير الاية: ٣٠ من سورة الانبياء: **﴿اولم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما﴾** فقال: «فتكون الاية قد اشتملت على عبرة تعم كل الناس وعلى عبرة خاصة باهل النظر والعلم فتكون من معجزات القرآن العلمية التى اشرنا اليها فى مقدمات هذا التفسير»

ففى تفسير الايات على ضوء العلم ثراء لا ينكر وفى تكثير المعانى تكثير للعبرة وهو القصد من القرآن

وقد تطول قائمة الامثلة التى تناول بها الشيخ الايات عن طريق العلوم الحديثة.. لذلك نكتفى بالاحالة على بعضها وهى:

١ - الاية ١٦٤ من سورة البقرة: **﴿ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الريح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون﴾**.

٢ - الاية ٣٠ من سورة الانبياء: **﴿اولم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون﴾**.

٣ - الاية ٥ من سورة الحج: **﴿يأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الارحام ما نشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾**.

٤ - الاية ٥ من سورة الزمر: **﴿خلق السموات والارض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى إلا هو العزيز الغفار﴾**.

والذى يلاحظه الباحث فى كيفية طرق الشيخ هذه الايات ومثيلاتها دقة فى الوصف تنم عن اطلاع وتحقيق دون ان يتوسع فى الجزئيات التى قد يصعب على القارىء ادراك الفائدة من ايرادها فى تفسير الاية.

■ والواقع ان بقدر ما اكد على ضرورة الاهتمام بجانب العلوم الحديثة فى شرح الايات بقدر ما دعا الى الحذر والتثبت فى تأويلها... فالقاعدة التى سار عليها

عندما تلتقى الاية بالحقيقة العلمية كما فهمت وكما ستفهم اكثر «ان لا يخرج الفهم عما يصلح له اللفظ عربية . . ولا يبعد عن الظاهر الا بدليل . . ولا يكون تكلفا بينا ولا خروجا عن المعنى الاصلى حتى لا يكون ذلك كتفاسير الباطنية»(٣٣) . كما اشترط توخى الايجاز وتجنب الاستطراد .



وقد استوفى الشيخ ابن عاشور فى وضوح تام الشروط التى ينبغى ان يخضع لها كل تفسير فى المقدمة الرابعة فجعل مقياس التصرف فى المعانى دلالة اللفظ والسياق الذى يرد فيه والمقصد القرآنى الذى يستخلص من الاية . . من اجل هذا كله فانه لا ينبغى ان تجلب الضمائر العلمية فى شرح الاية الا فى مناسبات محددة كأن توحى الاية الى مسألة علمية او يكون معنى الاية متوقفا على الالمام - بالقاعدة العلمية ولا يكون ايراد المسائل العلمية فيها هدفا بحد ذاته بل يكون طريقا لتوضيح المعنى او تثبيت المقصد القرآنى او استرواح المعانى من الاية .

ولعل هذه الاحترازات التى أبداها الشيخ ترجع الى عدم موافقته اولئك الذين افرطوا فى جلب المسائل العلمية وفى تحليلها فخرجوا بذلك عن الهدف الاصلى من تفسير الاية تفسيرا علميا وهو عين الهدف من التفسير عموما واعنى بذلك الهداية .

ويتفق الشيخ ابن عاشور فى هذا الموقف مع الشيخ محمد عبده الذى دعا هو ايضا الى الاخذ بالتفسير العلمى ولكن بالقدر الذى لا يبعد بالمفسر عن المقصد الاعلى للقرآن وهو الهداية .

إن تفسير الشيخ ابن عاشور قد جمع فى طريقة تأليفه بين تيارين :

١ - تيار تناول التفسير من ناحية بلاغية ولا شك من انه قد ابدع فى هذه الناحية .

٢ - تيار تناول التفسير من ناحية علمية . وهذا الجانب وان لم يكن هو الطابع المميز له غير انه رحمه الله قد وفاه حقه بالقدر الذى لا يزيد على الحاجة الى فهم القرآن وقصد الاهتداء به . . وهو باهتمامه بهذه الناحية قد طبع تفسيره كما قلنا فى البداية بطابع العصر لأن عصرنا هو عصر العلم فأعان الباحثين على تصنيفه تصنيفا زمنيا كما لبى رغبة المتسائلين المتعددين عن موقف القرآن الكريم من العلم وهى مسألة لا تنفك اليوم عن الالحاح فى السؤال فى الاوساط المختلفة بين المسلمين وغيرهم .

ولعل احسن ما نختم به هذا البحث ان ننعت تفسير التحرير والتنوير بما نعته به صاحبه حين قال عنه : «ففيه احسن ما فى التفاسير . . وفيه احسن مما فى التفاسير»